International Journal of Arabic Language and Literature Studies
المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وادابها
ISSN: 2707-7659
DOI: 10.32996/ijalls
Journal Homepage: www.al-kindipublisher.com/index.php/ijalls

مراحل التّرسّل التّاريخيّة للأدب العربي: من نافذة الفنّ، والأدب

أ. عبد العزيز يوسف زي - أستاذ مشارك - قسم اللغة العربيّة - جامعة التعليم والتربية بكابل - أفغانستان.
أ د. محبوب الرحمن صافي - أستاذ مشارك - قسم اللغة العربية - جامعة البيروني كابيسا - أفغانستان.

تاريخ استلام البحث: 2025/11/01	تاريخ نشر البحث: 2025/11/15	المجلد: 7	العدد: 2

الملخص:
تناول هذا البحث الحديث عن فنٍّ من أبرز الفنون الأدبيّة, وتطوّره عبر العصور، وهو (فنّ التّرسّل)، فقد مرَّ بمراحل متعدّدة، وشهد تغيّراتٍ كبيرةً من حيث: الأسلوب، والغرض. وكان هذا الفنّ أداةً هامّةً في الحياة السّياسيّة والدّبلوماسيّة، وكذلك وسيلةً للتّواصل الاجتماعيّ والأدبيّ، ممّا يجعله جزءًا مهمًّا من التّراث الأدبيّ العربيّ والإسلاميّ. وتكمن أهمّيّة الكتابة في هذا الموضوع في أهميّة فنّ التّرسّل في الأدب العربيّ، وخاصّة النثر، وهي قضيّةٌ تخفى على كثيرٍ من دارسي اللّغة العربيّة، كما أنّ الكتب التي تناولت هذه القضية تختلف بين مسهبٍ، وبين مختصر مخلٍّ، وخاصّة في الجامعات الأفغانيّة، فجاء هذا البحث ليلقي بالضوء على هذه القضية الأدبية المهمة بأسلوب سلسٍ مشوّق وبعبارات سهلة، متبعًا المنهج (التاريخي، والتحليلي، والوصفي، والمقارن) للوصول إلى أهدافها. وللبحث عن هذا العنوان لابدّ من التّكلّم عن الكتابة وأدواتها، وأشكال الرّسائل، فبدأ البحث بالكلام عن العصر الجاهليّ ممهّدًا للبحث عن وجود الكتابة وأشكال الرّسائل وموضوعاتها في ذلك العصر ومعنى التّرسّل، ثمّ عن الكتابة وصفاتها وميزاتها في صدر الإسلام، مع بيان موضوعات رسائل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وخصائصها تمهيدًا للكلام عن التّرسّل في العصر الإسلامي، ثمّ بيان أعلام التّرسّل بصورةٍ موجزةٍ في العصور الأدبيّة المتعاقبة، مع ذكر بعض النّماذج النّثريّة. وانتهى البحث بنتائج عدّة، من أهمّها: أهمية فنّ الترسّل في تطوير الأدب العربي عامّة، والنثر خاصّة، وإنّ هذا الفنّ قد مرّ بمراحل عدّة في التطور، وكل مرحلة تميّزت بميزة وأهداف خاصّة، وهناك أهداف أساسيّة لفنّ الترسّل، تتمثّل في: نقل المعلومات، والتّعبير الشّخصي، والتّوجيه، وتعزيز العلاقات السّياسيّة والاجتماعيّة، والتّوثيق التّاريخيّ، وإبراز الإبداع الأدبيّ.

الكلمات المفتاحية: التّرسّل ـ مراحل ـ الأدب العربي ـ التّاريخيّة.

Historical Development of Epistolary Writing in Arabic Literature: From the Perspective of Art and Literature

Abdulaziz Yousuf Zai, Visiting Assistant Professor, Department of Arabic Language, University of Talim Tarbeya, Kabul , Afghanestan
Dr. Mahbooburrahman Safi, Visiting Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, University of AL-Beroni, Kabesa, Afghanestan

Corresponding Author: Dr. Mahbooburrahman Safi, **E-mail**: m.f.Safi15@gmail.com

RECIEVED: 01 November 2025	**PUBLISHED: :** 15 November 2025	**DOI:** 10.32996/ijalls.2025.7.2.2

Abstract
This study addresses one of the most prominent literary arts and its historical evolution across different periods, namely the art of epistolary writing (tarassul). This genre went through multiple stages and underwent significant changes in style and purpose. It served as a crucial tool in political and diplomatic life, as well as a means of social and literary communication, making it an essential component of Arab-Islamic literary heritage.

The significance of this research lies in highlighting the importance of tarassul in Arabic literature, particularly in prose a topic often overlooked by many students of the Arabic language. Moreover, previous works on this subject have varied between overly detailed studies and overly concise ones, especially in Afghan universities. Therefore, this research aims to shed light on this important literary topic in a clear and engaging manner, using historical, analytical, descriptive, and comparative approaches to achieve its objectives. The study begins with a discussion of writing and its tools, as well as the forms and themes of letters in the pre-Islamic era, explaining the meaning of tarassul. It then examines writing, its characteristics, and features in the early Islamic period, including the subjects and characteristics of the Prophet's (peace be upon him) letters, as a prelude to discussing epistolary writing in the Islamic era. The study also provides a brief overview of prominent figures in the field of tarassul throughout successive literary periods, along with selected prose examples. The research concludes with several key findings, the most important of which are:
The art of tarassul contributed significantly to the development of Arabic literature in general, and prose in particular.
This art evolved through multiple stages, each distinguished by unique characteristics and objectives.
The fundamental objectives of tarassul include: conveying information, personal expression, guidance, strengthening political and social relationships, historical documentation, and showcasing literary creativity..

Keywords: Tarassul – Stages – Arabic Literature – Historical Development

المقدمة:

يعدّ ابن زيدون[1] أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومي الأندلسيّ، القرطبيّ من أبرز شعراء الأندلس، وأعلاهم مجداً، وسيادةً، وأدباً. فأشعاره فيّاضة بالمعاني والرؤى، تفتح للباحث أبواب التأويل والتحليل؛ لما فيها من عذوبة لفظيّة، وظواهر

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على خاتم الرّسل والنّبيّين: محمّدِ بن عبدالله الأمين، الّذي جمع بين الفصاحة والبيان، وعلى آله وصحبه أجمعين. أمّا بعد؛

فتعتبر الرّسائل إحدى الفنون الأدبيّة الّتي برزت عبر مختلف العصور؛ حيث تُعدّ من الفنون المهمّة الّتي لعبتْ دورًا كبيرًا في عمليّة التّواصل بين النّاس، وقد كانت لها محطّاتٌ مضيئةٌ، وصفحاتٌ مشرقةٌ في الحياة الأدبيّة والفكريّة والاجتماعيّة، فقد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا خلال العصرين: الأمويّ والعبّاسيّ؛ إذ ذاع صيتها، وأصبحت ذات هيبةٍ، وقد وصلت إلينا منها نماذج كثيرةٌ، واستمرّت حتى العصر الحاضر.

والرّسالة قطعة من النّثر الفنّي، تطول أوتقصر تبعًا لمشْئية الكاتب وغرضه وأسلوبه، وقد يتخلّلها الشّعر إذا رأى لذلك سببًا، ولا يخفى على أيّ متتّبعٍ لتاريخ الأدب العربيّ ذلك الدّور البارز الّذي أدّته الرّسالة مع مجيء الإسلام على الصّعيد السّياسيّ والدّينيّ والأدبيّ والاجتماعيّ؛ فكانت الرّسالة أداةً فعّالةً في الاتّصال بالعالم الخارجيّ، وهذا ما لم يكن الشّعر والخطابة قادرين على تحقيقه، ومن هذا التّاريخ نافس الكاتب المترسّلُ الشّاعرّ والخطيبَ.

وتجدر الاشارة إلى أنّ تعدّد أنواع الرّسائل يرتبط بتعدّد المجالات المرتبطة بها، مثل: الرّسائل السّياسيّة الّتي تسمّى بالرّسائل الرّسميّة، بينما تسمّى الرّسائل الاجتماعيّة بالرّسائل الإخوانيّة، فحظي النّثر الفنّيّ في عصور الأدب العربي بمكانةٍ ومنزلةٍ مرموقةٍ، ولا سيّما فنّ التّرسّل الّذي يُعدّ من أبرز الأجناس الأدبيّة، الّتي تبيّن قدرة الكاتب على التّحكم في ألفاظه؛ بناءً على أفكارٍ متسلسلةٍ، وعواطف صادقةٍ مبنيّةٍ على علاقاتٍ متداخلةٍ، والّتي أغنت الأدب على مرّ العصور، ويعتبر فنّ التّرسّل من أكثر الفنون تعبيرًا عن الواقع؛ يفتح لنا نافذةً على التّاريخ، نطّلع منها على حياة الأفراد والمجتمعات النّاشئة لفترة زمنيّةٍ محدّدةٍ نظرًا لطبيعته التّواصليّة، فهو تعبيرٌ وتبليغٌ لما في النّفس من خلجاتٍ. ولقد كان لهذا الفنّ حظٌّ وافرٌ من الاهتمام في العصور الأدبيّة المختلفة، ابتداءً من العصر الجاهلي حتّى الآن.

ولا ننسى أنّ معظم النّاس كانوا يعرفون القراءة والكتابة في الجاهليّة، أمّا الّذين يتقنون الكتابة؛ فهم قلّةٌ، وكانوا يستخدمونها في العقود والمواثيق والمعاملات، فمن ثَمّ لم تكن هناك رسائل أو كتاباتٌ فنيّةٌ، وفي صدر الإسلام كانت الكتابة ناشئةً مبتدئةً، ليست لها تقاليد مرسومة، أو قواعد محكّمة، أمّا باحتذاء القرآن الكريم والشّعر الجاهلي؛ فقد ولد النّثر الفنّيّ في صدر الإسلام، ونضج في

[1] القيسي، الفتح محمد بن عبيد الله ابن خاقان(529هـ/1989). قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين يوسف خريوش، ط1، الزرقاء، الأردن، مكتبة المنار.

العصر الأمويّ حين نمت وارتقت الكتابة نموًّا واسعًا؛ إذ أخذ الأدباء والكتّاب عن الّذين سبقوهم من العصرين: الجاهليّ والإسلاميّ، فعرفوا فكرة الكتابة، وألّفوا كتبًا كثيرةً شملت قصص الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وأخبار شعوبهم، وتحدّثوا عن الملوك الأوائل، كما كانت هناك رسائل سياسيّة: تصدر عن دواوين الخلفاء والولاة، أو عن خصومهم، ورسائل اجتماعيّة: يتبادلها النّاس في أمور حياتهم الشّخصيّة، ورسائل دينيّةٌ أيضًا.

فاهتمّ الأدباء بالنّثر اهتمامًا كبيرًا؛ نظرًا لحاجتهم إليه، فقد ذاع صيته بكثرةٍ في العصر العبّاسيّ وذلك بظهور الكتابة، والتّأليف، والطّباعة، والعوامل السّياسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة، وغيرها؛ حيث استعملتْ في شتّى مجالات الحياة،كما انبثق في ذلك العصر الكثير من الأدباء؛ ممّا ساهم في انتشاره، كما ولد النّثر العربيّ على يد (سالم بن عبد الله) مولى (هاشم بن عبد الملك) في العصر الأمويّ، وترعرع على يد (عبد الحميد الكاتب)، وشبّ على قلم (عبد الله بن المقفع)، و(سهل بن هارون)، وتأنّق بالزخرف في رسائل (ابن العميد)، وتفلسف بـ(جلال المعري)، وتصنّع في المقامات، وبهت بريقه بتكلّف (القاضي الفاضل)؛ حيث أنّه مرّ على عدّة أدباءٍ، على مرّ العصور، حتى جاء (الجاحظ)، وترك بصمةً في ازدهاره، ممّا كان له أثرٌ كبيرٌ في الأدب العربيّ، وبلغ النّثر قمته في أدبه، وحين جاء العصر الحديث؛ تطوّر النّثر خاصّة مع ظهور (المنفلوطيّ) في ميدان الأدب؛ فظهر في النّثر مذهبان أو اتّجاهان: مدرسة المحافظين، ومدرسة المجدّدين، حتى بلغ النّثر أوجه في العصر الحديث.

سبب اختيار البحث:

اختيار بحث التّرسّل عبر العصور الأدبيّة المختلفة يعود لأهميّة هذا الفنّ الأدبيّ، كوسيلةٍ للتّواصل الاجتماعيّ، والسّياسيّ، والثّقافيّ، ولغناه بالتّنوع الأسلوبيّ، والأغراض المختلفة. كما يوفّر البحث في هذا المجال فرصةً لفهمٍ أعمق لتطوّر الفكر واللّغة، والعلاقات الاجتماعيّة والسّياسيّة في التّاريخ العربيّ. ومن الأسباب الّتي دفعتني للخوض في هذا البحث:

حاجة الباحثين، وطلاب العربية خاصة في الجامعات الأفغانيّة للاطلاع على فنّ الترسّل، والذي يعتبر من الفنون الغامضة في أذهانهم.

تسهيل عرض المادة العلمية بأسلوبٍ سهلٍ مختصرٍ، مع دراسة معمّقةٍ ومتخصّصة حول فنّ الترسّل، وخاصة في حالة انعدام بحث فيه في الجامعات الأفغانية حسب الاطلاع.

أهميّة تصحيح المفاهيم الأدبيّة عامّة، وخاصة فيما يتعلّق بفنّ التّرسّل.

الرّغبة الذّاتيّة لدراسة ومعالجة فنّ التّرسّل ومراحلها عبر العصور الأدبيّة المختلفة.

صعوبات البحث:

يواجه بحث فنّ التّرسّل في العصور الأدبيّة القديمة عدّة صعوباتٍ؛ نظرًا لتعقيدات هذا الفنّ الأدبيّ، وتاريخه الممتدّ عبر عصور متعدّدة، منها:

ندرة المصادر الأصليّة؛ فبيئتنا الأفغانية بيئةٌ غير عربيّةٍ، وقد دهمتها الحروب والمعارك حوالي 40 سنة، فتخلّفنا في جميع مجالات الحياة، لذا لا توجد لدينا مكتباتٌ، ومصادر أدبيّة لتسدّ حاجاتنا العلميّة في جامعتنا.

وإنْ كانت توجد المصادر الأدبيّة في الشّبكة الدّوليّة؛ لكنّ معظمها لا تفتح مجانًا، بل يُكلّف الباحثين هنا مصاريف باهضة؛ بسبب سوء الأحوال الاقتصادية عامّةً.

وما يُفتح منها؛ يستغرق وقتًا طويلًا بسبب الضّعف الموجود في الشّبكة الدّوليّة، وانقطاع الكهرباء أحيانًا.

ولا ننسى أنّه من الصّعب اختيار المحتويات المرتبطة بالموضوع من المصادر الأدبيّة المختلفة للمحقق، دون راحة البال والامكانيات المطلوبة، مع أنّ مثل هذه الاستقصاءات تطلب وقتًا طويلًا، وفكرًا مستقرًّا، وأن يكون المحقّق مكرّمًا عند الحُكّام، ومكفيّ الحاجة من جميع نواحي الحياة.

التّنوّع الزّمنيّ والجغرافي؛ فقد تطور فنّ التّرسّل عبر عصورٍ مختلفةٍ، ابتداءً من العصر الجاهليّ، حتى العصر الحديث، وفي مناطق جغرافيّة متنوّعةٍ من الجزيرة العربيّة؛ وهذا يجعل من الصّعب تغطية كلّ تطوراته، وإدراك الفروق من ناحية الأسلوب والمحتوى بين العصور والمناطق.

الأسلوب البلاغيّ المعقّد؛ فالكثير من الرّسائل القديمة تحتوي على أساليب بلاغيّةٍ معقّدة، مثل: السّجع، والاستعارة، والجناس، ممّا يجعل تحليلها واستخلاص المعاني منها تحدّيًا، خاصّةً إذا كانت الرّسائل تهدف إلى الإبهار اللّغويّ أكثر من الوضوح.

الاختلاف في الأغراض؛ فكانت الرّسائل في العصور الأدبيّة القديمة متعدّدة الأغراض، منها: ما هو دبلوماسيٌّ سياسيٌّ، أدبيٌّ، شخصيٌ، أو دينيّ، لذا فهم السّياق التّاريخيّ لكلّ رسالةٍ يُعدّ تحدّيًا؛ حيث يحتاج الباحث إلى خلفيّةٍ واسعةٍ في التّاريخ والسّياسة والثّقافة العامّة للعصر الّذي يبحث فيه.

التّداخل بين الرّسائل والأدب؛ فالرّسائل تُكتب أحيانًا كأنّها أعمالٌ أدبيّةٌ بحدّ ذاتها، وأحيانًا تمتزج مع أنواع أدبيّةٍ أخرى، مثل: الشّعر أو الحكمة. وهذا التّداخل يجعل تصنيف الرّسائل وفهم أهدافها صعبًا.

التأيرات الثّقافيّة المتنوّعة؛ فتأثّر فنّ التّرسّل بالعديد من الثّقافات المختلفة، مثل: الفارسيّة، والبيزنطيّة، والهنديّة؛ ودراسة هذه التّأثيرات تتطلّب معرفةً متعدّدة اللّغات والثّقافات، ممّا يزيد من تعقيد البحث.

التّحليل الثّقافيّ والاجتماعيّ؛ فلفهم فنّ التّرسّل لابدّ من تحليل السّياقات الثّقافيّة والاجتماعيّة الّتي كُتبت فيها الرّسائل، وهذا يتطلّب من الباحث درايةً واسعةً بالأنظمة الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة لتلك العصور، وهو ما يُعدُّ تحدّيًا كبيرًا.

خلاصة الكلام: البحث في فنّ التّرسّل في العصور الأدبيّة المختلفة هو تحدٍّ كبيرٌ، يتطلّب من الباحث خلفيّةً قويّةً في الأدب العربيّ، والتّاريخ، والبلاغة، والسّياسة. وهذه الصّعوبات تجعل دراسة هذا الفنّ أكثر تعقيدًا، لكنّها رغم كلّ هذه التّحدّيات توفّر فرصةً لاستكشاف تطوّر الفكر والتّواصل عبر العصور.

أسئلة البحث:

تكمن هذه الدّراسة في الإجابة عن سؤال أصليٍّ، وأسئلةٍ فرعيّةٍ:

السّؤال الأصليّ: ما المراد بـ(التّرسّل) في الأدب العربيّ، وما هي مراحل تطوّره؟

الأسئلة الفرعيّة:

ما السّمات الفنّيّة الّتي تميّزت بها الفنون النّثريّة في العصر الإسلاميّ والعبّاسيّ بشكلٍ عامٍّ؟

ما هو أثر الإسلام على النّثر بشكلٍ خاصٍّ؟

ماهو دور (الجاحظ) في تنشيط النّثر العربيّ؟

ما هي الفنون النّثريّة الّتي أوجدها الكُتّاب على مرّ العصور؟

كيف تأثّرت أساليب وأغراض التّرسّل بالتّغيرات السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة في كلّ عصرٍ.

أهداف البحث:

لكل عملٍ علميّ هدف أساسٌ، وأهداف فرعيّة، ويمكن أن نبيّنها كالتّالي:

الهدف الأساس: بيان المراد بفنّ (الترسّل)، وتوضيح مراحل تطوّره عبر العصور.

الأهداف الفرعيّة:

بيان السّمات الفنّيّة الّتي تميّزت بها الفنون النّثريّة في العصر الإسلاميّ والعبّاسيّ بشكلٍ عامٍّ؟

بيان أثر الإسلام على النّثر بشكلٍ خاصٍّ؟

إبراز دور (الجاحظ) في تنشيط النّثر العربيّ؟

توضيح الفنون النّثريّة الّتي أوجدها الكُتّاب على مرّ العصور؟

كيفيّة تأثّر التّرسّل بالتّغيرات السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة في كلّ عصرٍ.

أهميّة البحث:

تتجلّى أهمّيّة بحث (فنّ التّرسّل) في عدّة جوانب أدبيّةٍ، وثقافيّةٍ، وتاريخيّةٍ، حيث يسلّط الضّوء على تطوّر هذا الفنّ عبر العصور، ودوره في المجتمع، ومن أبرز هذه الأهمّيّة:

فهم تطوّر الأدب العربيّ: يساعد البحث في فنّ التّرسّل على تتبّع مراحل تطوّر الأدب العربيّ، وأشكال الكتابة المختلفة؛ حيث يُعتبر جزءًا مهمًّا من التّراث الأدبيّ العربيّ الّذي يعكس الأساليب الأدبيّة المتنوعة عبر العصور.

التّوثيق التّاريخيّ والاجتماعيّ: يُعتبر فنّ التّرسّل وثيقةً تاريخيّةً تعكس أوضاع المجتمعات، السّياسيّة، والاجتماعيّة، والثّقافيّة؛ حيث تسهم الرّسائل في فهم الحياة اليوميّة، والسّياسات والقيم الّتي سادت في مختلف العصور.

التّعرف على الأساليب البلاغيّة والفنّية: يقدّم فنّ التّرسّل مجالًا غنيًّا لدراسة الأساليب الأدبيّة والبلاغيّة، حيث تكشف الرّسائل عن مستوى التّعبير البلاغيّ، وجماليّة اللّغة؛ ما يُبرز إبداع الكُتّاب، وقدراتهم الأدبيّة.

تحليل العلاقات السّياسيّة والدّبلوماسيّة: يكشف البحث في رسائل التّرسّل عن دورها كوسيلة تواصل دبلوماسيٍّ، وإداريٍّ بين الحكّام، ويوضّح كيفيّة إدارة العلاقات الدّوليّة، وحلّ النّزاعات والتّعاون بين الدّول؛ ممّا يعزّز فهمنا لتاريخ الدّملوماسيّة.

حفظ التّراث الأدبي: يسهم البحث في فنّ التّرسّل في حفظ التّراث الأدبيّ، حيث يُبرز قيم وأفكار وتقاليد المجتمعات العربيّة عبر العصور، ويضمن نقل هذه القيم للأجيال القادمة.

إثراء الدّراسات الأدبيّة المعاصرة: يفتح البحث في هذا الفنّ المجال لاستلهام الأساليب والأفكار في الدّراسات الأدبيّة الحديثة، ويسهم في تعزيز البحث الأكاديميّ والابتكار الأدبيّ.

خلاصة الكلام: يعزز بحث (فنّ التّرسّل) في فهم تطوّر الأدب العربي، ويعتبر توثيقًا تاريخيًا هامًّا، كما يُبرز الأساليب البلاغيّة، ويكشف عن العلاقات السّياسيّة والدّبلوماسيّة في العصور الماضيّة؛ ممّا يجعله مساهمةً قيّمةً في الحفاظ على التّراث الأدبيّ العربيّ وفهمنا العميق للثّقافة العربيّة.

منهج البحث:

للوصول إلى نتائج علميّةٍ في بحثٍ مثل (فنّ التّرسّل عبر العصور الأدبيّة المختلفة)؛ يجدر اتّباع عدة مناهج، تتكوّن من (المنهج التاريخيّ، والوصفيّ، والتحليليّ، والمقارن) من خلال تتبّع الخطوات التّاليّة:

المنهج التّاريخيّ: يعتمد هذا المنهج على دراسة تطوّر فنّ التّرسّل عبر مختلف العصور الأدبيّة، بدءًا من العصر الجاهليّ، وحتى العصر الحديث، وتحليل تأثير الظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة على تطور الرّسائل.

المنهج الوصفيّ التّحليليّ: يتناول تحليل النّصوص الرّسائليّة المختارة بهدف فهم أسلوب الكتابة وخصائص البلاغة، والصّور الفنّية والموضوعات الّتي تناولتها الرّسائل.

المنهج المقارن: يهدف إلى مقارنة أساليب الكتابة والأهداف المختلفة لفنّ التّرسّل في كلّ عصرٍ.

وبتتبّع المناهج أعلاه؛ يمكن دراسة (فنّ التّرسّل) بطريقة شاملةٍ ومتكاملةٍ، تعكس تطوّره وأثره في الأدب العربيّ.

الدّراسات السّابقة:

يجب للباحث أنْ يذكر الدّراسات السّابقة ذات الصّلة القريبة أو البعيدة بالبحث، والاعتراف بفضل أصحابها الّذين بذلوا جهودهم المتواصلة، وأتاحوا لنا فرصة الدّراسة حول الموضوع، ومن أهمّ الكُتُب الّتي تناولت الحديث عن النّثر العربيّ عامّةً، و(فنّ التّرسّل) خاصّةً هي:

ما ألّفه (حنا الفاخوري) تحت عنوان: «الموجز في الأدب العربيّ القديم وتاريخه»، كما أنّ له كتاب آخر يحمل عنوان: «تاريخ الأدب العربيّ».

قام الدّكتور (طه حسين) بالبحث عن النّثر الجاهليّ، كما تحدّث عن النّثر الإسلاميّ، وكذلك النّثر بعد منتصف القرن الأوّل الهجريّ، وتكلّم عن نشأة النّثر الفنّيّ في كتابه: «من حديث الشّعر والنّثر»، ويعتقد أنّ العرب والمستشرقين يرون أنّ (عبد الحميد الكاتب)، و(ابن المقفّع) هما اللّذان أسّسا للنّثر العربيّ، وفي هذا كثيرٌ من المبالغة؛ فلم يؤسّس النّثر كاتبٌ معيّنٌ بعينه، وإنّما نشأ نشأةً طبيعيّةً ملائمةً للشّعب العربيّ الإسلاميّ.

ويجب أنْ نذكر ما ألّفه (الدّكتور محمّد يونس عبد العال) والّذي يُعدُّ كتابه «في النّثر العربيّ: قضايا، وفنونٌ، ونصوصٌ» - المطبوع في القاهرة: دار نوبار، 1996م - مرجعًا مهمًّا لدّراسة النّثر العربيّ وفنونه، وقد تناول كلًّا من الخطابة والرّسائل، وأفرد لكلٍّ منهما فصلًا خاصًّا به، وأشار في مقدّمته أنّ هناك ثلاثةً من أشهر الفنون النّثريّة الرّئيسة، ذات الحضور الظّاهر عبر العصور الأدبيّة المتعاقبة، وهي: الخطبُ، والرّسائل، والقصص، مع الاكتفاء بعرضها عرضًا يتّجه إلى الاهتمام ببداياتها قبل الإسلام، ثمّ يتبعها تبعًا يسيرًا لا يتجاوز في المختار من نصوصها عصرَيْ: صدر الإسلام، والدّولة الأمويّة.

كذلك الدّراسة الّتي قدّمها (الدّكتور زكي مبارك) عن النّثر الفنّيّ في كتابه: «النّثر الفنّيّ في القرن الرّابع الهجري» المطبوع في القاهرة: مؤسّسة الهنداوي، 1934م، حيث أفرد فيها بابًا كاملًا، تحدّث فيه عن تطوّر النّثر الفنّيّ من عصر النّبوة إلى القرن الرّابع الهجريّ، فهو ينظر إلى وجود النّثر الفنّيّ في الجاهليّة، والّذي يرى: أنّ العرب في جاهليّتهم اهتموا بالنّثر الفنّيّ اهتمامًا، ظهر أثره وعُرفت خواصّه في خطب الخطباء، ورسائل الكُتّاب.

كذلك قدّم (أنيس المقدسي) دراسةً في كتابه: «تطور الأساليب النّثريّة في الأدب العربي»، المطبوع في بيروت: دار العلم للملايين، 1968م، والّتي أشار فيها إلى الأساليب الأدبيّة، وتناول فيها النّثر العربي، وخصائصه الفنّيّة، وعرضه لثلاثة أساليب نثريّةٍ رئيسةٍ، منها: الأسلوب المتوازن، أي: المزدوج غير المسجّع، وهو أسلوب أشهر كُتّاب العصر الأمويّ (عبدالحميد الكاتب)، والأسلوب المسجع، وهو أسلوب الرّسائل الدّيوانيّة والأدبيّة، أمّا الأسلوب الثّالث؛ فهو المطلق، وهو النّثر السّائد في الكُتُب العلميّة والتّاريخيّة والاجتماعيّة قديمًا.

ولعلّنا نذكر بعض الدّراسات الأخرى في النّثر العربيّ، منها:

«الرّسالة الإخوانيّة في التّراث العربي»، الّتي كتبها (إبراهيم صليحة) عام 2017م.

صورة مي زيادة عند جبران خليل جبران « الشّعلة الزرقاء أنموذجًا»، كتبتها (نجلا برهمي)، وتناولت فيها الموضعات المرتبطة بالنّثر، وذلك في عام 2021م.

رسالة «النّوابغ والزوابع»، كتبها (ابن شهيد الأندلسيّ) عام 2008م، وتناول فيها مباحث حول النّثر.

ويمكن أن نقول في الفرق بين تلك الدراسات السابقة وهذا البحث، أنها تناولت موضوع (فنّ الترسّل) ضمنًا، ولم تحدد له صفحاتٍ، أو فصولًا، أو بابًا، وهذا البحث يعتبر من الأبحاث التي خصصت الحديث حول (فنّ التّرسّل، وتطوّره)؛ ممّا جعله يتحدث عن هذا الفنّ بنوعٍ من التخصّص، والاهتمام. إضافةً إلى أن تلك الدرسات وأمثالها تناولت قضيّة (فنّ الترسّل) بأسلوبٍ صالحٍ لزمانها، ومناسب للظروف الأكاديمية والعلمية في تلك الأيام، وهذا التناول لا يناسب الأوضاع الأكاديمية والظروف العلمية في الجامعات الأفغانية، مما يوجب على الباحثين أن يقدّموا مادّة علميّة بأسلوبٍ مناسب، وبعبارةٍ واضحةٍ بليغة، فالبلاغة هي الحديث طبق أحوال المخاطبين، وتوصيل الفكرة إلى أذهانهم بكلّ تقبّل وقناعةٍ. ومما يتميّز به هذا البحث هو الاختصار غير المخلّ، وجمع النقاط المهمّة في ورقاتٍ معدودةٍ، وهناك نقاط تناولها هذا البحث بالتحليل، لم تتعرض لها تلك الدراسات السابقة.

خلاصة القول: توضّح لنا الدّراسات السّابقة أنّ (فنّ التّرسّل) انتقل من كونه وسيلةً شفويّةً في الجاهليّة إلى فنّ أدبيّ مزدهرٍ في العصر العبّاسيّ، ثمّ إلى رسائل رسميّةٍ في العصور المتأخّرة، ليعود مجدّدًا بأشكالٍ شخصيّةٍ واجتماعيّة في العصر الحديث؛ حيث أصبح جزءًا مهمًّا من الأدب العربيّ، يعكس تطوّر الأساليب البلاغيّة والتّعبيريّة. ومن خلال نافذة الفنّ والأدب؛ يمكن تقسيم مراحل فنّ التّرسّل إلى عدّة فتراتٍ تاريخيّةٍ، لكلٍّ منها سماتٌ وخصائصُ مميّزة، وقبل الخوض في مراحل تطوّر فنّ التّرسّل يجدر بنا الإشارة إلى أنّ فنّ التّرسّل يعتبر من أهمّ الفنون الأدبيّة، وله العديد من الأهداف الّتي تختلف باختلاف العصور والسّياقات الّتي يُكتب فيها. وفيما يلي أبرز الأهداف الّتي يسعى فنّ التّرسّل إلى تحقيقها:

التّواصل ونقل المعلومات؛ فيُعتبر التّرسّل وسيلةً أساسيّةً لنقل الأخبار والمعلومات بين الأفراد والمؤسّسات، سواءٌ كانت معلوماتٍ رسميّةً أو شخصيّةً.

التّعبير عن المشاعر والأفكار؛ فيُستخدم التّرسّل للتّعبير عن مشاعر كاتبه وأفكاره الشّخصيّة أو العاطفيّة، ويظهر هذا بشكلٍ خاصٍّ في الرّسائل الأدبيّة والعاطفيّة.

الدّبلوماسيّة والسّياسيّة؛ فقد لعب التّرسّل دورًا مهمًّا في توطيد العلاقات الدّبلوماسيّة والسّياسيّة، حيث استخدمت الرّسائل كوسيلةٍ للتّواصل بين الحكام والملوك لحلّ النّزاعات أو تعزيز التّحالفات.

التّوجيه والارشاد؛ فيهدف التّرسّل إلى تقديم النّصائح والارشادات، سواءٌ كانت تعليميّةً، دينيّةً، أو أخلاقيّةً، ممّا يعكس دور الرّسائل في نشر المعرفة.

التّاريخ وتوثيق الأحداث؛ فتُعدّ الرّسائل وثائق تاريخيّة تسهم في توثيق الأحداث والشّؤون العامّة والخاصّة؛ ممّا يساعد في فهم التّاريخ والعصر الّذي كُتبت فيه.

الإبداع الأدبيّ والبلاغيّ؛ فيُتيح التّرسّل مجالًا للابداع الأدبيّ والبلاغيّ؛ حيث يظهر في أساليب الرّسائل الأدبيّة والأدباء، ممّا يعكس جماليّات اللّغة، وقوّة التّعبير.

خلاصة الكلام: تتمثّل الأهداف الأساسيّة لفنّ التّرسّل في نقل المعلومات، والتّعبير الشّخصي، والتّوجيه، وتعزيز العلاقات السّياسيّة والاجتماعيّة، والتّوثيق التّاريخيّ، وإبراز الإبداع الأدبيّ. وعودًا على بدء، سنشير في الفقرات التالية إلى مراحل تطور فن التّرسّل، كالتالي:

1 ـ مرحلة العصر الجاهلي:

لقد كان اعتماد الحياة الأدبيّة والفكريّة عند العرب القدامى على الشّعر كبيرًا، ولم يُوْلُوا اهتمامهم بالنّثر الّا حينما وجدوا أنّه ضرورةٌ تطلبها المعاملات التّجاريّة؛ فاضطرّوا إلى تعلّم الكتابة من الأنبار، وأوّل من تعلمها منهم: (حرب بن أميّة القرشي)، جدّ (معاويّة بن أبي سفيان) (2: 157).

أمّا عن الكتابة الفنّيّة في العصر الجاهليّ؛ فيرى معظم الباحثين: «أنّ العصر الجاهليّ لم يعرف الكتابة غير ما دُوّن من بعض المعاهدات، والأحلاف، والعقود التّجاريّة» (4 : 15).

ولقد كان (فنّ التّرسّل) أحد الفنون الّتي اهتمّوا بها؛ حيث تميّزت رسائلهم من النّاحيّة الشّكليّة بالإيجاز والبساطة في التّعبير، بينما تميّزت من ناحية المضمون بتسجيل التّوصيات والحِكَم، والأمثال، ومن النّماذج الرّساليّة في ذلك العصر: رسالة (المنذر الأكبر) إلى (أنوشروان)، أو رسالة (النّعمان بن المنذر) إلى (كسرى) في الرّد على اتّهاماته للعرب، وتفنيد أباطيله فيهم، ورسالة (عمروبن هند) إلى عامله بالبحرين، المعروفة بصحيفة «المتلمس»، وكتاب (عدي بن زيد العبادي) إلى أخيه (أُبَيّ)، ويعتبر كتاب التّحالف بين عبد الملطلب بن هاشم (بنو خزاعة)؛ من أهمّ الرّسائل والكتب السّياسيّة الّتي حفظت في العصر الجاهليّ، يضاف إلى ذلك رسائل رمزيّة بعثها بعض الأسرى إلى أقوامهم يستنجدونهم، أو يحذّرونهم خطط الأعداء (4 : 16).

والملاحظ: أنّ الرّسائل الجاهليّة كانت قريبةً إلى حدٍّ ما من الخطبة؛ باعتبار الخطبة أكثر الفنون النّثريّة شيوعًا في تلك المرحلة؛ «لأنّ العرب عامّةً كانوا أقدر على الخطابة منهم على كتابة» (12 : 398).

وهناك من أكّد على عدم وجود (فنّ التّرسّل) في العصر الجاهليّ، وأرجع سببها إلى قلّة استعمال الكتابة وصعوبة وسائلها، يقول الدّكتور شوقي ضيف: «العرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهليّ لأغراضٍ سياسيّةٍ، وتجاريّةٍ، لكنّهم لم يخرجوا بها لأغراضٍ أدبيّةٍ خاصّةٍ، تتيح لنا أنْ نزعم أنّه وجد عندهم لونٌ، لا يجد لرسائل، كنوع من الكتابة الفنّية» (14 : 19).

وحين نؤكّد أنّه لا وجود لرسائل كنوعٍ من الكتابة الفنّيّة في العصر الجاهليّ، ليس معناه: أنْ ننكر بعض الألوان النّثريّة الأخرى، مثل: القصّة، والأمثال، والخطب، كما يقول شوقي ضيف: «إذا كنّا نفتقد الأدلّة الماديّة على وجود رسائل أدبيّة في العصر الجاهليّ؛ فمن المحقّق أنّه وجدت عندهم ألوانٌ مختلفةٌ من القصص، والأمثال، والخُطب، وسجع الكهان» (12: 399).

2 ـ مرحلة صدر الإسلام:

مع بزوغ فجر الإسلام والنّبوة؛ أخذت الدّعوة تنسج من خيوطها أفكارًا نيّرة من عقول جيل الصّحابة الكرام، ملؤها الإيمان والعقيدة السّمحة، الّتي استطاع نبيّ الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - من خلالها تغير نسيج العقل الجاهليّ من الظّلمات إلى النّور، ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين، يتمثّل القسم الأوّل: مرحلة بداية الدّعوة، وأمّا القسم الثّاني؛ فهو مرحلة الخلافة الرّاشدة.

أ ـ مرحلة بداية الدّعوة:

لقد شكّل نزول القرآن الكريم حدثًا هامًّا في تاريخ الأمّة العربيّة، ومن مميّزات الرّسائل في هذه الفترة: أنّها شكّلت امتدادًا للنّثر في العصر الجاهليّ، كما اتّسمت بتغلّب الهدف الدّعويّ على الهدف الفنّيّ، ولذلك جاءت موجزةً واضحةً، وبلغةٍ سهلةٍ مألوفةٍ، بعيدةٍ عن التّكلف والتّنميق اللّفظيّ، إلى جانب ذلك؛ فقد خلت الرّسائل من عبارات التّفخيم والتّعظيم، إلّا ما ندر. ومن نماذج الرّسائل النّبويّة الشّريفة؛ نجد رسالة النّبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلم - إلى (هرقل)، يقول فيها: «بسم الله الرّحمن الرّحيم. من محمّد بن عبد الله، ورسوله، إلى (هرقل) عظيم الرّوم: سلامٌ على من اتّبع الهُدى. أمّا بعد؛ فانّني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ؛ تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين» (10 : 29).

أمّا رسالته إلى (كسرى) ملك الفُرس؛ ففيها تذكيرٌ بالعقيدة، وإنذارٌ، وتحذير؛ فتقول الرّسالةُ: «بسم الله الرّحمن الرّحيم. من محمّدٍ رسول الله إلى (كسرى) عظيم فارس.. سلامٌ على من اتّبع الهُدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أنَّ لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله إلى النّاس كافّة، لينذر من كان حيًّا. أَسْلِمْ؛ تسلمْ» (15 : 604).

وحوت هذه الرّسالة على صيغةٍ فيها: تذكيرٌ بالعقيدة، وإنذارٌ لكسرى؛ لأنّه كان مشركًا يعبد النّار، وفاسدًا للعقيدة. أمّا رسالته - صلى الله عليه وآله وسلم – للنّجاشيّ؛ فكانت مختلفةً، فقد تميّزت بالطّول والاحترام المتبادل بين المرسل والمرسل إليه، وكان نصّ الرّسالة هكذا: «بسم الله الرّحمن الرّحيم.. من محمّدٍ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى (النّجاشيّ) عظيم الحبشة، سلامٌ على من اتّبع الهُدى، أمّا بعد؛ فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلّا الله هو، الملك، القدّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أنّ

عيسى بن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطّيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأنْ تتّبعني وتؤمن بالّذي جاءني؛ فإنّي رسول الله، وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله عزَّ وجلّ، وقد بلغتُ ونصحتُ؛ فاقبل نصيحتي. والسّلام على من اتّبع الهُدى» (15 : 602).

يبدو من رسائل النّبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الإيجاز والبلاغة؛ ملائمةً لأحوال ظروف الدّعوة، والوضوح، والقصد، والاقناع، والبعد عن التّكلف والصّنعة.

لقد أكّدت الرّسائل النّبويّة الشّريفة أنّ الدّين الإسلاميّ هو دينٌ عالميٌّ، وهو لكافّة النّاس.

ب ـ مرحلة الخلافة الرّاشدة:

لم يتغيّر فنّ الكتابة التّرسّليّة بشكلٍ كبيرٍ عمّا كان عليه في العصر النّبويّ الشّريف، وقد مسّ التّغيير الجوانب المضمونيّة تبعًا للمتغيّرات التّاريخيّة والسّياسيّة الّتي طرأت حياة الأمّة الإسلاميّة، حيث اتّسمت مطالع الرّسائل بالبسملة، وقد لوحظ على رسائل مرحلة الخلافة التّأثر بالقرآن الكريم في اللّفظ والمعنى، وجودة الأسلوب، والبعد عن التّكلّف والاستشهاد بالشّعر في ثنايا الرّسائل أو في ختامها، وتجدر الإشارة إلى أنّ الرّسائل في عهد الخلفاء الرّاشدين قد تميّزت بمسحةٍ دينيّةٍ، وتجلّت بكتابة البسملة والصّلاة والسّلام على النّبي الكريم، والتّوحيد والتّحميد، والوعظ والإرشاد والدّعاء، حتّى صارت نماذج يحتذى بها وسنّةً تقتضى (13 : 135).

وقد سلك الخلفاء الرّاشدون مسلك النّبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - في رسائلهم، كما كتب عمر بن الخطاب رسالةً إلى سعد بن أبى وقاصٍ - رضي الله عنهما - بعدما تولّى سعدٌ قيادة جيش المسلمين الّذي توجّه لحرب الفُرس في القادسيّة، فزوّده عمر بن الخطاب بهذه الرّسالة الّتي رسم له فيها خطّة الحرب كاملةً، من ألفها إلى يائها، وأوصاه فيها أن يترفّق بالجند، وأنْ يرعى حقوق أهل الذّمة، وأنْ يسترشد بالعيون والطّلائع، وأنْ يحترس من البيئات، وأنْ ينظّم الحراسة ليلًا، وهذا النّصّ جزءٌ من تلك الرّسالة يتضمّن جانبًا خطير الأهمّيّة، بالغ الأثر في تحقيق النّصر، ألاَ وهو «التّقوى» (5: 155).

النّص: «أمّا بعدُ؛ فإنّي آمُرُك ومن معك من الأجناد بتقوى الله سبحانه وتعالى على كُلّ حالٍ، فإنّ تقوى الله تعالى أفضلُ العُدّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمُرُك ومن معك أنْ تكونوا أشدّ احتراسًا من المعاصي منكم من عدوّكم، فإنّ ذُنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنّما يُنصرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك؛ لم تكن لنا بهم قُوّةٌ، لأنّ عددنا ليس كعددهم، ولا عُدّتُنا كعُدّتهم، فإن استوينا في المعصية؛ كان لهُم الفضلُ علينا في القُوّة، وإلّا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهُم بقوّتنا، فاعلموا أنّ عليكم في سيركُم حفظةً من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النّصر على عدوّكم، أسألُ الله تعالى ذلك لنا ولكم» (5: 155).

اشتملت هذه الرّسالة على المعاني والأفكار الآتية:

1 ـ التّمسك بالتّقوى في كلّ حالٍ، سواء أكان ذلك في حال اليسر، أو في حال العسر، في حال الشّدة، أو في حال الرّخاء؛ لأنّ تقوى الله أقوى الأسلحة، وأشدّها، فهي القوّة المعنويّة الّتي تدفع الجنديّ إلى التّمسّك بالنّصر، وتحُثُّه على الاستشهاد بنفسٍ راضيةٍ مستبشرةٍ بما عندالله.

2 ـ التّحذير من الوقوع في المعصية، لأنّها مصدر الخطر الأوّل على المجاهدين، بل إنّها أشدُّ عليهم من خطر العدوّ.

3 ـ النّصر حليف المسلمين، لأنّهم يدافعون عن الحقّ، وعدوّهم يدافع عن الباطل، وهذا هو السّرّ في أنّ قلّة عدد أهل الحقّ تغلب كثرة أهل الباطل. قال تعالى:(قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَقُوا اللَّهِ كَم مِن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَة بإذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَابِرِينَ) [البقرة : 249].

تفسير الآية: (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ) أيْ: يتيقّنون (أَنَّهُم مُلَقُوا اللَّهِ كَم مِن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَة بإذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَابِرِينَ) الفئة: الجماعة. (وَاللَّهُ مَعَ الصَابِرِينَ) أيْ: إنّ النّصر مع الصّبر، وليس بكثرة العدد (21: 41).

4 ـ ميزة المسلمين أنهم يلتزمون تقوى الله، وهي الحافز لهم لانتزاع النّصر، وبها يزدادون عددًا، وعُدّةً تفوق ما جمعه الأعداء من حُشُود وعتاد، فإذا تساووا مع العدو في عصيان الله؛ غلبهم العدو؛ لأن عدده أكثر من عددهم، وعُدّته أقوى من عُدّتهم.

5 ـ تنبيههم بأنّ عليهم رقابةً عليا من الله عزّ وجلّ تتمثّل في ملائكته الّذين يسجّلون في صحائفهم كلّ ما يفعلون، فيجب أن يستحوا منهم.

6 ـ لا يليق بالمؤمن أنْ يكون قد باع روحه في سبيل الله، ثمّ يقترف المعاصى؛ لأنّ المؤمن المجاهد يجب أن يكون نقي الصّفحة، ناصع الثّوب في هذه المهمة الجليلة.

7 ـ إنّ أقوى الجهاد هو جهاد النّفس؛ لأنّ النّفس أمّارةٌ بالسّوء، ولذا كان لا بُدَّ أنْ يقاوم المسلم نزوات نفسه، ورغباتها، حتّى ينتصر عليها، فذلك هو السّبيل إلى النّصر على العدوّ.

8 ـ التّوجّه إلى الله بطلب النّصر في كلّ حينٍ؛ لأنّ النّصر من عند الله يؤتيه من يشاء، ولذلك ينبغي أنْ نتّجه إليه نطلب منه النّصر، والمعونة، والتّائيد، فلا تغرّنا كثرة عددٍ، ولا عُدَّة، فنفرط في الثّقة بالنّفس، وننسى الله ناصر عباده المخلصين (5: 156).

3 ـ العصر الأمويّ:

يعتبر العصر الأمويّ مرحلةً غنيّةً بالمتغيّرات، لا سيّما في مجال الأدب بشكلٍ عامٍّ، وفي مجال التّرسّل بشكلٍ خاصّ؛ حيث عرف هذا العصر بدايةً لاستقلاليّة شخصيّة كاتب الرّسالة، بعدما كانت الرّسائل في العصر النّبويّ يغلب عليها طابع الاملاء من الخليفة؛ فتعدّدتِ المكاتبات، وكثرتِ الدّواوين، وأنشاء معاوية τ ديوان الرّسائل وديوان الخاتم، وكانت تصدر عن الأوّل رسائل تفيض بيانًا، ويظهر منها جمال الأسلوب وسحر البلاغة، أمّا الثّاني؛ فمهمّته أنْ يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع؛ ليصدر منه مختومًا لا يدري حامله ما فيه، ولا يستطيع أنْ يغيّره (8 : 295).

ومن أبرز خصائص فنّ التّرسّل أنّ معظمه كان فنًّا رسميًا تعلّق بأمور الدّولة، وقد ظهرت فيه الصّنعة اللّفظيّة، وسيطرة الأساليب الانشائيّة، والتّصوير والاسترسال في تفريع المعاني، ونجد من بين المهتمّين بهذا الفنّ، وأشهرهم في العصر الأمويّ: عبد الحميد الكاتب (10 : 160).

ومن النّماذج الرّساليّة لفنّ التّرسّل في العصر الأمويّ: رسالة عبد الحميد الكاتب، والّتي وجّهها للكُتّاب يقول فيها: «أمّا بعد؛ حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم، ووفّقكم، وأرشدكم، فإنّ الله عزَّ وجلّ جعل النّاس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، فجعلكم معشر الكُتّاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروّات، والعلم والرّزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، ويعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد إلّا كافٍ منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم الّتي بها يسمعون، وأبصارهم الّتي بها يبصرون، وألسنتهم الّتي بها ينطقون، وأيديهم الّتي بها يبطشون، وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتّواضع والتّذلّل لعزّته والتّحدّث بنعمته، وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النّصيحة يلزمه العمل. وهو جوهر هذا الكتاب، وعزّة كلامه بعد الّذي فيه من ذكر الله عزَّ وجلَّ، فلذلك جعلته آخره، وتممت به. تولّانا الله وإيّاكم يا معشر الطّلبة والكتبة بما يتولّى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإنّ ذلك إليه وبيده. والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته» (19: 173 ـ 175).

4 ـ العصر العبّاسيّ:

يُعدُّ العصر العبّاسيّ محطّةً مشرقةً ونيّرة في تاريخ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة بالنّظر إلى ذلك المستوى الحضاريّ الّذي وصلت إليه، وبما أنّ الأدب لا يمكنه أنْ يكون بمنأى عن المتغيّرات الّتي تحيط ببيئته، فقد بلغ فنّ التّرسّل في العصر العبّاسيّ أرقى ما وصل إليه الإنشاء العربيّ؛ حيث شاع البديع، وتلوّنت الرّسائل بالصّنعة اللّفظيّة، كما سيطر السّجع بشكلٍ جلّيٍّ وواضحٍ، وصار للرّسائل نمطٌ كتابيٌّ خاصٌّ من حيث البدء والعرض والختام، كما تعدّدت أغراض التّرسّل في العصر العبّاسيّ، مثل: الرّسائل الدّيوانيّة، والرّسائل الإخوانيّة، والرّسائل الأدبيّة، والتّوقيعات (8 : 30).

1 ـ الرّسائل الدّيوانيّة: تعتبر من أبرز الفنون الّتي لاقت عنايةً فائقةً آنذاك؛ وذلك لما تتميّز به من مستوًى بلاغيٍّ رفيعٍ، وكانت الرّسائل الدّيوانيّة سبيلًا للوصول إلى المناصب العليا لكُتّاب الدّواوين، وهذه الرّسائل الدّيوانيّة تصدر عن ديوان الخلافة، وكانت تعالج العهود الّتي يكتبها الخلفاء لمن يولون الخلافة بعدهم، كما تشمل المنشورات الّتي كانت تُقرأ على الجنود وعلى الجماهير لتثبتهم على البيعة، أو تحذرهم من الخروج عن الطّاعة، أو تُنبئهم بالانتصار على عدوٍّ، أو بالقضاء على زنديقٍ، أو خارجٍ على الدّين.

2 ـ الرّسائل الإخوانيّة: لقد اهتمّ بها العبّاسيّون؛ وذلك لحاجاتهم إلى التّواصل مع الغير، والمراد بها: الرّسائل الّتي كان يتداولها الأصدقاء بعضهم مع بعضٍ في مختلف الشّئون، فربّما كانت تهنئةً بِعيدٍ، أو بسلامةٍ من مرضٍ، أو حادثٍ عارضٍ، وربّما كانت تعزيةً أو عتابًا، أو طلبًا للشّفاعة. وليست لها صفةٌ رسميّةٌ، كما تدور حول الصّلات الاجتماعيّة والمشاعر الخاصّة (11 : 102).

3 ـ الرّسائل الأدبيّة: ونعني بها الّتي تعالج علمًا، أو فنًّا، أو وصفًا، ومن أبرز الأمثلة على ذلك: رسائل الجاحظ.

4 ـ التّوقيعات: وهي كلماتٌ قصيرةٌ، يكتبها الخليفة أو الوزير في ذيل شكوى أو استمناح، أو أيّة قصّةٍ تعرض عليه؛ ليبدي فيها رأيه، وكانت تمتاز بالإيجاز والبلاغة، وإصابة الهدف (20 : 39).

ومن أمثلة ذلك: توقيع الرّشيد إلى عامله في خراسان «داوِ جرحَك؛ لا يتّسع» (9 : 159).

وتوقيع جعفر البرمكي لأحد العمّال: «لقد كثر شاكوك، وقَلَّ شاكروك، فإمّا اعتدلت، وإمّا اعتزلت» (9 : 159).

5 ـ مرحلة العصر المملوكيّ:

قبل الخوض في الموضوع؛ يجدر بنا تعريف الدّولة المملوكيّة بأنّها ظهرت بعد سقوط الدّولة الأيّوبيّة، والدّولة الأيّوبيّة هي من دويلات العصر العبّاسيّ الثّاني، إذ جلب الملك الصّالح نجم الدّين أيّوب عددًا من الأرقّاء التّركيّين والشّركسيّين، ورباهم تربيةً عسكريّةً، وأنزلهم جزيرة الرّوضة (شاطيء النّيل)، ولذلك سمّوا بالمماليك البحريّة (20 : 148).

ولا ننسى أنّ المماليك ينقسمون إلى قسمين: المماليك البحريّة كما سبق ذكرهم، والمماليك البرجيّة الّذين أسكنهم الملك صالح في أبراج القلعة، وكانوا حرسًا وجنودًا للأيّوبيّين، وتوصّلوا إلى السّلطة بالقوّة (6:16).

فنون التّرسّل في هذا العصر:

لم يكن للشّعر مكانةٌ مثل الّتي كانت للنّثر في العصر المملوكيّ، ونظرًا لهيمنة الحكم العسكريّ المملوكيّ؛ كان للتّرسّل دورٌ محوريٌّ في التّواصل بين السّلاطين والأمراء، وبين الحكومات الأجنبيّة، وكان فنّ التّرسّل أداةً للتفاوض في إدارة شؤون الدّولة، وتبادل الرّسائل الدّملوماسيّة بين المماليك والقوى الخارجيّة، مثل: المغول والصّليبيّين، وامتازت رسائلهم بالزّخرفة البديعيّة، مثل: السّجع، والجناس، والطّباق، إذ أصبحت الزخرفة اللّغويّة سمةً أساسيّةً، وكان الهدف منها: إظهار المهارة البلاغيّة للكاتب، وإضفاء هيبة الرّسالة، كما كان الخطاب الرّسميّ يتخلّله توجيهاتٌ دينيّةٌ، ويحتوي على آياتٍ قرآنيّةٍ كريمةٍ، وأحاديث نبويّةٍ شريفةٍ، ودعواتٍ وأدعيةٍ تؤكّد شرعيّة القرارات والأوامر، وهذا يعكس مدى تأثير الدّين في الحياة السّياسيّة والإداريّة خلال العصر المملوكيّ، كما كانوا يستخدمون عبارات الثّناء المبالغ فيها، خصوصًا في الرّسائل الموجّهة إلى السّلاطين وكبار القادة، وكان يهدف هذا الأسلوب إلى إظهار الاحترام، وتعزيز مكانة المتلقّي.

خلاصة القول: إنّ التّرسّل في العصر المملوكيّ جمع بين الطّابع الرّسميّ المهيب، والمهارة الأدبيّة المنمّقة، وتعدّ الرّسائل المملوكيّة سجلًّا تاريخيًّا وثقافيًّا يعكس طبيعة المجتمع والعلاقات السّياسيّة في ذلك العصر، وجدير بالذّكر أنّ (القاضي الفاضل) يُعدّ أحد أبرز كُتّاب التّرسّل في العصر المملوكيّ، والّذي اشتهر ببراعته البلاغيّة، وقدرته على المزج بين الفصاحة والوضوح في رسائله الّتي كان يكتبها لصلاح الدّين الأيّوبيّ. و(ابن نباتة المصري) الّذي كان من كبار الكُتّاب والأدباء في عصره، وله مجموعةٌ كبيرةٌ من الرّسائل الأدبيّة الّتي تتميّز بالزّخرفة اللّغويّة وبلاغةٍ رفيعةٍ. ومن أنواع الرّسائل الّتي سادت في تلك المرحلة هي:

الرّسائل الإخوانيّة: إنّ شوؤن الحياة تقتضي التّهنئة حينًا والمواساة حينًا آخر، ولذلك ظهرت الرّسائل الإخوانيّة، مثل: الفرح بمولودٍ، أو التّعزية عند وفات قريبٍ، أو صديقٍ؛ فهي الّتي تعبّر عن مشاعر الكُتّاب والشّعراء نثرًا ونظمًا، من: مدحٍ، وهجاءٍ، واعتذارٍ، وعتابٍ، ورثاءٍ، وشكرٍ، وتهنئةٍ (7 : 403).

ولم تكن الرّسائل الإخوانيّة مجرد وسيلة للتواصل بل كانت تعبيرًا عن ثقافة أدبيّة راقية، تهتم بالعلاقات الانسانيّة والاجتماعيّة، وكانت تلك الرّسائل تعكس الطّابع الثّقافيّ والاجتماعي لذلك العصر، حيث كانت الرّوابط الشّخصيّة بين الأصدقاء والزّملاء تُعدّ جزءًا مهمًّا من الحياة اليوميّة.

الرّسائل الدّيوانيّة: تميّزت الرّسائل الدّيوانيّة بأسلوبٍ رسميٍّ وجادٍّ؛ إذ كانت تصدر عن السّلاطين أو المسؤولين الكبار، مثل: الوزراء والقضاة، وكان الهدف منها هو: نقل الأوامر، والتّعليمات، أو القرارات الهامّة المختلفة بإدارة الدّولة أو العلاقات الدّملوماسيّة، وكانت الرّسائل الرّسميّة متعدّدة الموضوعات والمناسبات، منها: ما يتبادله الملوك والسّلاطين فيما بينهم من مهامّ الأمور، وجلائل الأحداث في الحرب والسّلام، كما حفظت لنا مصادر العصر مجموعةً كبيرةً من رسائل السّلاطين إلى ملوك العالم (7 : 237).

الرّسائل المملوكيّة: الرّسائل المملوكيّة كانت جزءًا مهمًّا من الحياة السّياسيّة والاداريّة والثّقافيّة في العصر المملوكيّ، وتمثّل شكلًا من أشكال التّواصل المكتوب الّذي اعتمدت عليه الدّولة المملوكيّة للتّعامل مع الشّؤون الدّاخليّة والخارجيّة، والتّواصل بين السّلاطين، والأمراء، والعلماء والأدباء، وتطوّرت هذه الرّسائل لتصبح فنًّا أدبيًّا يعكس المهارات البلاغيّة واللّغويّة الّتي كانت متطلّبةً بشدّةٍ في تلك الفترة. ونستطيع أن نقول: إنّ الرّسائل المملوكيّة هي: مكاتبات السّلطان إلى الملوك والأمراء في القضايا العامّة، الّتي تعالج شؤون الدّولة، أو العلاقات الخارجيّة بين الدّولة والدّول الأخرى (7 : 237).

التّقاليد: هي مجموعةٌ من العادات والممارسات الّتي تتناقلها الأجيال ضمن مجتمعٍ معيّنٍ، وتتشكّل من القيم والمعتقدات الثّقافيّة والدّينيّة، وتسهم في تشكيل الرّوابط الاجتماعيّة، وتعزز التّواصل بين الأجيال؛ مما يحافظ على هويّة المجتمع وتراثه، وتلعب التّقاليد دورًا مهمًّا في الحفاظ على التّراث الثّقافيّ، وتشكيل الهويّة الجمعيّة للمجتمع، وهي رسائل تعين رجال الدّولة في المجالات المختلفة من الحياة (17 : 31).

وجدير بالذّكر أنّ الرّسائل السّياسيّة قد احتلّت في العصر المملوكيّ مكانةً عاليةً؛ إذ تُعدّ لسان الدّولة النّاطق عن فكرها، وقد اهتمّ بكتابتها كُتّابٌ موهوبون، وأخرجوها على الوجه الّذي تليق به، كما نشأت في حضانة ديوان الإنشاء، فمنها: ما ينظم علاقة الخلفاء

بالخاصّة والعامّة من خلال البيعات والعهود الّتي تكفل سيادة أمر الخليفة ونفاذ أحكامه وأوامره ونواهيه في جوٍّ من الأمن والاستسلام (17 : 31).

6 ـ العصر الأندلسيّ:

لا يخفى على أيّ مطّلعٍ في تاريخ الأدب العربيّ ذلك التّواصل القائم بين المشرق العربيّ، والمغرب الإسلاميّ؛ ليظهر هذا في تأثر المغاربة الأندلسيّين بالمنجز المشرقيّ، ولكن لا يعني تأثّر الأندلسيّين بالمشارقة أنّهم نسجوا حرفيًّا على منوالهم، وإنّما سجّلوا إضافاتٍ جديدةٍ في فنّ التّرسّل؛ عكست في لغتهم الشّعريّة وموسيقاها، وقد عبّر عن ذلك (عبدالعزيز عتيق) بقوله: «وبما لهم من حريّة الكلمة أنْ يجولوا برسائلهم في كلّ مجالٍ، وأنْ يعالجوا من الموضوعات كلّ قريبٍ وبعيدٍ، وأنْ يطلبوا ما شاؤوا، وأنْ ينهج كلُّ كاتبٍ منهم في صناعته النّهج الّذي يرتضيه، ويلبيّ ميوله» (18: 249).

ومن الكُتّاب الّذين اشتهروا في تلك المرحلة: (خالد بن يزيد)، الّذي كان كاتبًا لـ(يوسف الفهري) أحد ولاة الأندلس، ومنهم: (أميّة بن يزيد)، الّذي دخل الأندلس مع جنود «بلج بن بشر»، واتّصل بخالد بن يزيد الّذي جعله كاتبًا بالإضافة إلى (ابن زيدون)، و(ابن شهيد)، و(ابن حزم)، وغيرهم. وكانت رسائلهم مطبوعةً، ثمّ تحوّلت الرّسائل إلى التّكلف والسّجع والتّزيين، وتقلّب الجمل على المعنى الواحد، والإكثار من الأدعية والأمثال، والشّواهد الشّعريّة، كرسائل: ابن دُرَيد، ورسائل لسان الدّين الخطيب (16:556).

وقد تعدّدت الرّسائل الأندلسيّة بتعدّد موضوعاتها، منها: الاجتماعيّة، والعقليّة، والنّفسيّة، والفلسفيّة، ورسائل الرّحلات، مثل: رسائل (ابن باجة) الفلسفيّة، ورسائل (ابن برد الأصغر) ذات البراعة الأسلوبيّة، ورسائل (ابن حسداي) في الزهريّات، ورسائل (أبي عبد الله بن مسلمٍ) في وصف الرّحلات إلى المُدُن والبلاط، وقد جمعت رسائله في رسالةٍ بعنوان «طيء المراحل» (16 : 557).

وقد تميّزت الرّسائل الأندلسيّة بجملةٍ من الخصائص الّتي سنبيّنها كالآتي:

التّقديم والختام: امتازت بتقديمها لصيغة الحمدلة والصّلاة والسّلام على النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّا ختامها؛ فكان بآيةٍ يحسن الاختتام بها، أو بالدّعاء، أو السّلام.

النّمط: اختصّت الرّسالة غالبًا بمخاطبتها للمرسل إليه بعد الإشارة إلى كتابه، وقد يأتي اللّقب مشفوعًا بالدّعاء بصيغة الغائب.

الاستشهاد: بالغوا في مراسلاتهم من الشّواهد الشّعريّة؛ لما أضفته من طابع فنّيٍّ أكسب الكاتب قوّة في التّعبير على إبداء ما في خاطره.

التّضمين: لم تخلو المراسلات الأندلسيّة من كثرة الأمثال الأدبيّة، أو العبارات التّاريخيّة، والعلميّة والّتي تحتاج في غالب الأمر إلى شرحٍ؛ لغرابة ألفاظها، وعمق معناها.

التّفرّع: تفرّعت الرّسائل بحسب تعدّد موضوعاتها، مثل: رسائل التّهنئة، والتّعزية، والمديح، والرّثاء، والإخوانيّات، والسّلطانيّات، وغير ذلك.

البديع: فقد أطنب المترسّلون الأندلسيّون من السّجع على سبيل التّأنّق اللّفطي والمعنوي، إضافةً للجناس والمحسّنات البديعيّة الأخرى، من قبيل: التّرصيع للأواني، أو الوشي للثّياب.

الخيال الشّعري: امتزجت الرّسائل الأندلسيّة بعطر الشّعر، حتى أصبح سجعهم كالشّعر المنثور، لكنّه مقفًّى، فلا يعوزه إلّا الوزن حتى يصير شعرًا غنائيًّا يتغنّى به في المناسبات الاجتماعيّة والمحافل والأفراح (22 : 29).

7 ـ التّرسّل في العصر الحديث: تعدّدت موضوعات الرّسالة في العصر الحديث، فمال الكثير من الكُتّاب والأدباء إلى الكتابة بأسلوبٍ بسيطٍ وعفويٍّ، مع الاهتمام بالمعنى، دون اهمالهم للمبنى، وذلك من خلال الابتعاد عن التّصنّع والتّقليد؛ حيث ظهرت المدارس الأدبيّة الّتي تدافع كلٌّ واحدةٍ منها على أطروحاتها وأفكارها، معلّلة آرائها بما تراه مناسبًا لتوجهها، فظهرت المدرسة المحافظة الّتي رفع لواءها (الشّيخ ناصيف اليازجي)، الّذي كان همّه بعث اللّغة، والمحافظة على الأسلوب القديم، واتّباع الأساليب الّتي ظهرت في العهد العبّاسيّ من جودة اللّغة وحسن الصّياغة والصّنعة.

أمّا مدرسة التّجديد؛ فقد بدأت مع (أحمد فارس الشّدياق) كما يقول حنا الفاخوري: «والّذي تبنّى المعاني والأساليب الجديدة في الأدب من تجوّله في الآفاق عامّةً، وفي البلاد الأوروبيّة خاصّةً، وراح يعالج الكتابة الصّحفيّة بأسلوبٍ جديدٍ وحديثٍ، ثمّ تبعه في مدرسته هذه محرّرو الصّحف، من أمثال: خليل خوري، صاحب «حديقة الأخبار»، وسليم البستاني، صاحب«الجنان»، وأصحاب المقتطف والهلال، والمترجمون الّذين نقلوا آثار الغربيّين، أو اقتبسوا منهم الأساليب، وكان (جبران خليل جبران) مثل غيره من أدباء المهجر محرّرًا متّبعًا الأساليب الفنّية العالميّة من إيجازٍ ودقّةٍ في المعاني بعباراتٍ سهلةٍ خاليةٍ من الزينة والسّجع، متّخذًا التّجديد منهجًا له.

وأمّا مدرسة الاعتدال؛ فمن أركانها: الشّيخ محمّد عبده، والشّيخ إبراهيم اليازجي، وقد جمعا بين القديم والحديث، مركّزين على الأسلوب الصّحيح، والتّفكير السّليم؛ ليواكب أفكار الحاضر، ويختصر (حنا الفاخوريّ) ما كان عليه النّثر في العصر الحديث بقوله: «نزع النّثر في هذا العهد نزعاتٍ مختلفةٍ، منها: النّزعة الأدبيّة في التّرسّل والقصص والأبحاث مع الشّيخين: ناصيف اليازجي، وابنه إبراهيم، ومع أحمد فارس الشّدياق، وجرجي زيدان، وسليمان البستاني، وأضرابهم، ومنها: النّزعة الاجتماعيّة في إصلاح مفاسد المجتمع، وتحرير المرأة، وتعليم الأحداث، مع قاسم أمين، وجبران خليل جبران، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وولي الدّين يكن، وغيرهم، ومنها: النّزعة السّياسيّة في تحرير البلاد، ومعالجة القضايا الوطنيّة، مع أمثال: مصطفى كامل، وسعد زغلول، ومنها: النّزعة العلميّة، مع: يعقوب صروف، ومن حذا حذوه» (21 : 23).

النّتائج:

نتوصّل من خلال ما سبق إلى النّتائج التّالية:

إنّ فنّ التّرسّل عربيّ النّشأة والمولد، وكان في العصر الجاهليّ. غير أنّه لم يُستخدم لأغراضٍ أدبيّةٍ، بل استخدم للمعاهدات، وأغراض تجاريّة، وللأحلاف والمواثيق.

عندما جاء الإسلام وتنوّرت حياة العرب في شتّى المجالات؛ ازدهرت كتابة الرّسائل، وأصبح الأدب غنيًّا بفضل القرآن الكريم، والأحاديث النّبويّة الشّريفة؛ إذ نرى الرّسائل في صدر الإسلام قد خلت من عبارات التّفخيم والتّعظيم، وكُتبت بعبارات فصيحةٍ وبليغةٍ لإجراء الأمور، والدّعوة الإسلاميّة.

وبالنّسبة للعصر الأمويّ - كما قلنا من قبل - فسير التّرسّل قد بدأ قبل عبدالحميد الكاتب، ولكنّه تطوّر على يده، وهو الّذي أحدث له نظمًا وقواعدَ، لم يسبقه إليه أحدٌ، فاعتبر الباحثون والأدباء عبر العصور الأدبيّة المختلفة أنّ الكتابة الفنّية بدأت بعبدالحميد؛ لأنّه استطاع أنْ يسيّره وفق نظامٍ خاصٍّ في الشّكل والمضمون، وهو أوّل من أدخل الإطناب، والتّوازن، وتنويع المطلع والختام والتّحميدات في فنّ التّرسّل، حتّى قيل بحقّ: «بدأت الكتابة بيد عبدالحميد الكاتب». وقد أخذ الأدباء والمترسّلون عنه الطّريقة والأصول في الإنشاء، واقتفوا آثاره في الكتابة، فصار إمامًا في فنّ التّرسّل، وشيخًا للكُتّاب والمترسلين في عصره.

ومن ملامح فنّ التّرسّل في العصر العبّاسيّ: التّنوّع؛ إذ كانت الرّسائل أنواعًا متعدّدة، منها: الرّسائل الرّسميّة بين الخلفاء والولاة، والرّسائل الأدبيّة بين الأدباء والعلماء، كما اعتمد فنّ التّرسّل في ذلك العصر على البلاغة والفصاحة، وعلى أسلوبٍ لغويّ متينٍ مليءٍ بالتّشبيهات والاستعارات والمحسّنات البديعيّة، كما قام الكُتّاب بالابداعات الأدبيّة، وأبرزوا قدراتهم الأدبيّة، وقدموا في رسائلهم صورًا بلاغيّةً، وتعبيراتٍ فنيّةً متقنةً.

سار فنّ التّرسّل في العصر المملوكيّ مثل ما كان في العصر العبّاسيّ، أمّا هناك بعض الملامح الّتي تميزت بها هذه الفترة، منها: الطّابع الرّسمي والسّياسي، ونظرًا لأنّ العصر المملوكيّ كان فترة حكم عسكريٍّ قويٍّ، وتركّز السّلطة في أيدي السّلاطين والأمراء؛ فقد أصبحت الرّسائل أكثر تعقيدًا ورسميّةً، وكانت تستخدم للتّواصل بين السّلاطين والولاة، وبينهم وبين الحكومات الأجنبيّة، وتميّزت الرّسائل المملوكيّة بالزّخرفة اللّغويّة والمبالغة في استخدام المحسّنات البديعيّة، مثل: السّجع، والجناس ؛مما جعل الأسلوب فخمًا ومعقّدًا أحيانًا. كما تأثّرت الرّسائل بالثّقافة الدّينيّة؛ لأنّ العصر المملوكيّ كان له طابعٌ دينيٌّ قويٌّ؛ ممّا انعكس على أسلوب التّرسّل كثيرًا ما استخدمت الآيات القرآنيّة الكريمة، والأحاديث النّبويّة الشّريفة في الرّسائل؛ لتأكيد السّلطة، أو لإضفاء شرعيّةٍ دينيّةٍ على القرارات والأوامر، وكانوا يقسّمون الرّسائل إلى: مقدّمةٍ تحتوي على المدح والثّناء على المتلقّي، ثمّ يدخل الكاتب في موضوع الرّسالة، ثمّ تأتي الخاتمة الّتي عادةً ما تتضمّن دعاءً أو خاتمةً أدبيّةً مزخرفةً، وعلى الرّغم من الفخامة اللّغويّة؛ فإنّ الرّسائل المتعلّقة بالأمور العسكريّة كانت تميل إلى الإيجاز والوضوح؛ لأنّ الهدف كان إيصال الأوامر بسرعةٍ ودقّةٍ، وكان هناك أيضًا رسائل أدبيّة بين العلماء والأدباء، وتميّزت بالأسلوب الأدبيّ الرّفيع، وناقشت موضوعاتٍ فلسفيّةً أو دينيّةً.

كانت الرّسائل الأندلسيّة من أبرز مظاهر الإبداع الأدبيّ والسّياسيّ في تاريخ الأندلس، وتميّزت بعدّة سماتٍ أساسيّة، مثل: البلاغة والفصاحة؛ يعني: كانت الرّسائل الأندلسيّة تتّسم باستخدام اللّغة البليغة والفصيحة، مع توظيفٍ مكثّفٍ للمحسّنات البديعيّة، مثل: الاستعارة، والتّشبيه، والسّجع، والجناس. ومثل: التّأدب والاحترام، ويعني: أنّه كانت الرّسائل تظهر احترامًا كبيرًا للطّرف الآخر، سواء كان شخصًا ذا مكانة سياسيّة أو اجتماعيّة. ومثل: التّنوع في الأغراض، ويعني: تنوّعت الرّسائل الأندلسيّة في أغراضها، منها: ماكان رسميًّا يتعلّق بالشّؤون السّياسيّة والدّملوماسيّة، ومنها: ماكان أدبيًّا، كرسائل الأدباء والشّعراء، ومنها ما كان اجتماعيًّا، وكالرّسائل بين الأصدقاء والأهل. ومثل: التّنظيم المنهجي؛ ويعني: تبدأ الرّسائل بمقدّمة تتضمّن التّحيّة والثّناء، ثمّ الموضوع الرّئيسيّ، وينتهي بالخاتمة الّتي غالبًا ما تتضمّن الدّعاء أو التّمنّيات الحسنة، كان هذا التّنظيم عنصرًا أساسيًّا في إضفاء الطّابع الرّسميّ والمهنيّ على الرّسائل. الطّابع الرّسميّ والدّينيّ: يعني: كانوا يهتمّون باستخدام المصطلحات الدّينيّة والسّياسيّة في رسائلهم. الزخرفة الأسلوبيّة: يعني: كانوا يستخدمون السّجع المنظّم، وهو أسلوبٌ يُظهر جمال اللّغة، ويوفّر موسيقى داخليّة للنّصّ. الإيجاز والوضوح: يعني: كانت الرّسائل الأندلسيّة موجزةً وواضحةً في إيصال الرّسالة أو الهدف. التّأثير الثّقافي الأندلسي: يعني: بحكم وجود الأندلس في تقاطع الثّقافات الإسلاميّة والأروبيّة، سواء في اختيار الموضوعات، أو الأسلوب، وهو ما جعلها فريدةً ومتميّزةً عن غيرها من الرّسائل

في العالم الإسلاميّ؛ إذ تأثّرت الرّسائل الأندلسيّة بتلك الثّقافات في عدّة جوانب، منها: الجانب الأدبي؛ فكانت الرّسائل تُكتب كأنّها قطعةً أدبيّةً يتباهى الكاتب فيها باتقانه للّغة. ومنها: التّوثيق والتّسجيل التّاريخي؛ فكانت الرّسائل تستخدم كوسيلةٍ لتوثيق الأحداث والقرارات السّياسيّة والدّملوماسيّة.

باختصار كانت الرّسائل الأندلسيّة تجسيدًا للثّقافة العاليّة في الأندلس، ووسيلةً للتّواصل الرّسميّ والاجتماعي بين النّاس، وتميّزت بتوازنٍ بين البلاغة والوضوح، وبين التّقليد والإبداع.

تتميّز الرّسائل في العصر الحديث بتغيّراتٍ كبيرةٍ مقارنةً بالعصور السّابقة، خاصّة مع تطوّر التّكنولوجيا ووسائل الاتّصال، ومن أهمّ سماتها: الإيجاز والوضوح: يعني سواء كانت رسائل الالكترونيّة أو مكتوبة، يفضّل التّعبير عن الأفكار بشكلٍ مباشرٍ ودقيقٍ، مع تجنّب الإطالة غير الضّروريّة. التّنوع في الوسائط مثلًا: عن طريق الوتسب، والتّلغرام، وغيرهما من وسائل التّواصل الاجتماعيّ. التّقنيّة والسّرعة: مثلًا مع ظهور الانترنت والبريد الالكتروني والهواتف المحمولة؛ أصبحت الرّسائل ترسل وتستقبل بشكلٍ فوريّ تقريبًا، وهذا عكس العصور السّابقة الّتي كانت الرّسائل تتطلّب وقتًا أطول للوصول. التّفاعل الفوري: مثلًا يمكن للمستقبل الرّدّ على الرّسالة فورًا؛ مما يجعل التّواصل أسرع، وأكثر كفاءةً، وهو أمرٌ بالغ الأهميّة في بيئات العمل، وكذلك من سماتها استخدام القواعد اللّغويّة المخفّفة، يعني: هناك تخفيف في الالتزام بالقواعد اللّغويّة والإملائيّة.

خلاصّة الكلام: تتميّز الرّسائل في العصر الحديث بالسّرعة، والتّنوع في الأساليب والوسائط، والمرونة في الأسلوب بين الرّسميّ وغير الرّسميّ؛ ممّا يعكس التّغيرات الكبيرة الّتي أحدثته التّكنولوجيا في أساليب التّواصل.

المصادر، والمراجع

1 ـ القرآن الكريم.
2 ـ الإسكندري، أحمد وآخرون. (2005م). **المفصل في تاريخ الأدب العربي**، القاهرة: مكتبة الأدب.
3 ـ الأشقر، محمّد سليمان عبدالله. (2001م). **زبدة التّفسير.** الكويت: دار النّفائس.
4 ـ بيوض، حسين. (1996م). **الرّسائل السّياسيّة في العصر العبّاسيّ الأوّل**، دمشق: منشورات وزارة الثّقافة.
5 ـ الجمبلاطي، علي محمّد، وآخرون. (1984م). **الأدب والنّصوص،** بيروت: مؤسّسة ناصر للثّقافة.
6 ـ حداد، جورج موسى. (2012م). **المدخل إلى دراسة الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني،** بيروت: دار النّشر المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.
7 ـ حسين، قصّي. (2006م). **الأدب العربيّ في العصرين: المملوكي والعثماني**، المؤسّسة الحديثة للكتاب: بيروت.
8 ـ داعوق، أمل سعد. (1982م). **فنّ المراسلة عند مي زيادة،** ط1، بيروت: دار الآفاق.
9 ـ الزّيّات، أحمد حسن. (2006م). **تاريخ الأدب العربي،** بيروت: دار المعرفة.
10 ـ خليف، مي يوسف. (ب ت). **النّثر الفنّيّ بين صدر الإسلام والعصر الأموي،** الأردن: دار قباء للطّباعة والنّشر.
11 ـ صالح، محمود عبد الرّحيم. (2006م). **فنون النّثر في الأدب العبّاسيّ،** ط2، الأردن: دار جرير للنّشر والتّوزيع.
12 ـ ضيف، شوقي. (ب ت). **تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي،** ط1، القاهرة: دار المعارف
13 ـ ضيف، شوقي. (2002م). **تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي،** ط20، القاهرة: دار المعارف.
14 ـ ضيف، شوقي. (د ت). **الفنّ ومذاهبه في النّثر العربي،** القاهرة: دار المعارف.
15 ـ الطّبري، محمد بن جرير. (2008م). **تاريخ الطّبري ـ تاريخ الأمم والملوك،** ج2، ط4، بيروت: دار المعارف.
16 ـ عبد، يوسف. (2006م). **دفاتر أندلسيّة في الشّعر والنّثر والنّقد والنّقد والحضارة والأعلام،** لبنان: المؤسّسة الحديثة للكتاب.
17 ـ عبد، سلامة هليل. (2014م). **الرّسائل الفنّية في العصر المملوكي الأول** (648 ـ 784هـ)، ط1، الأردن: دار الحامد للنّشر والتّوزيع.
18 ـ عتيق، عبد العزيز. (1976م). **الأدب العربي في الأندلس،** بيروت: دار النّهضة العربيّة.
19 ـ علي، محمد كرد. (1331هـ). **رسائل البلغاء،** مصر: دار الكتب العربيّة الكبرى.
20 ـ العماري، علي محمد حسن. (2003م). **الأدب العربي وتاريخه**، مصر: مطابع روز اليوسف الجديدة.
21 ـ الفاخوري، حنا. (1986م). **الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب الحديث**، ط1، بيروت: دارالجيل.
22 ـ كبوط، عبد الحليم. (2008م). **أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة،** الجزائر : كليّة الآداب والعلوم الانسانيّة، جامعة الحاج لخضر باتنة.

References

1. The Holy Quran.
2. Al Iskandari, Ahmad, et al. (2005). Al Mufassal fi Tarikh al Adab al Arabi (The Detailed History of Arabic Literature). Cairo: Maktabat al Adab.
3. Al Ashqar, Muhammad Suleiman Abdullah. (2001). Zubdat al Tafsir (The Essence of Exegesis). Kuwait: Dar Al Nafais.
4. Bayoudh, Hussein. (1996). Political Letters in the Early Abbasid Era. Damascus: Ministry of Culture Publications.
5. Al-Jambalati, Ali Muhammad, et al. (1984). Literature and Texts. Beirut: Nasser Foundation for Culture.
6. Haddad, George Moussa. (2012). Introduction to the Study of Arabic Literature in the Mamluk and Ottoman Periods. Beirut: Arab Studies and Publishing Foundation.
7. Hussein, Qussi. (2006). Arabic Literature in the Mamluk and Ottoman Periods. Beirut: Modern Book Foundation.
8. Daouk, Amal Saad. (1982). The Art of Letter Writing in May Ziadeh's Works, 1st ed. Beirut: Dar Al-Afaq.
9. Al Zayyat, Ahmad Hassan. (2006). History of Arabic Literature. Beirut: Dar Al Marifa.
10. Khalif, Mai Yousuf. (n.d.). Artistic Prose between Early Islam and the Umayyad Era. Jordan: Dar Quba for Printing and Publishing.
11. Saleh, Mahmoud Abdul Rahim. (2006). Prose Arts in Abbasid Literature, 2nd ed. Jordan: Dar Jarir for Publishing and Distribution.
12. Dhiif, Shawqi. (n.d.). History of Arabic Literature in the Pre Islamic Era, 1st ed. Cairo: Dar Al-Ma'arif.
13. Dhiif, Shawqi. (2002). History of Arabic Literature in the Islamic Era, 20th ed. Cairo: Dar Al Ma'arif.
14. Dhiif, Shawqi. (n.d.). Art and Its Methods in Arabic Prose. Cairo: Dar Al Maarif.
15. Al Tabari, Muhammad ibn Jarir. (2008). Tarikh al-Tabari History of Nations and Kings, vol. 2, 4th ed. Beirut: Dar Al Maarif.
16. Abdul, Yousuf. (2006). Andalusian Notebooks on Poetry, Prose, Criticism, Civilization, and Notable Figures. Lebanon: Modern Book Foundation.
17. Abdul, Salama Halil. (2014). Artistic Letters in the Early Mamluk Period (648–784 AH), 1st ed. Jordan: Dar Al-Hamed for Publishing and Distribution.
18. Atiq, Abdulaziz. (1976). Arabic Literature in Andalusia. Beirut: Dar Al Nahda Al Arabiya.
19. Ali, Muhammad Kurd. (1331 AH). Rasa'il al Bulgha' (Letters of the Eloquent). Egypt: Dar Al Kutub Al Arabiya Al Kubra.
20. Al-Omari, Ali Muhammad Hassan. (2003). Arabic Literature and Its History. Egypt: Rose Al-Yusuf New Press.
21. Al-Fakhouri, Hanna. (1986). The Comprehensive History of Arabic Literature: Modern Literature, 1st ed. Beirut: Dar Al Jeel.
22. Kaboot, Abdul Halim. (2008). The Literature of Andalusian Letters. Algeria: Faculty of Arts and Humanities, University of Haj Lakhdar, Batna.